الآثار الاقتصادية و الاجتماعية للسيول في بلاد الشام في العصر المملوكي (٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م)

الباحثة / بتلاء فالح راجح السبيعي

قسم التاريخ - كلية الآداب -جامعة الملك سعود - عمادة الدراسات العليا

المملكة العربية السعودية

ملخص البحث :

يتناول البحث ظاهرة السيول التي تعرّضت لها بلاد الشام في العصر المملوكيّ وأثارها الاقتصادية والاجتماعية ، وهي إحدى الظواهر الطبيعية التي كان لها أضرار متنوّعة على المجتمع،وكان لها عظيم الأثر في الإنسان والحيوان والنبات،بل أحدثت الدمار في النواحي العمرانية، وأثّرت في البِنى السكانية والاقتصادية للمدن الشامية. وسيقتصر هذا البحث على الآثار الاقتصادية والاجتماعية التي خلفتها السيول، من خلال المصادر التاريخية التي عاصرت هذه الظاهرة أو أشارت إليها، مع محاولة استقراء آثارها في بلاد الشام في الدولة والعلماء والعامة، ودور كلٍّ منهم في الحدّ من آثارها والتخفيف منها في المناطق المنكوبة.وقد تناثرت المعلومات في بطون المصادر التاريخية والأدبية، التي وصفت الأضرار التي خلّفتها السيول، مما استلزم البحث عنها واستخراجها، وتوضيحها، وتنظيمها، واستقراء نتائجها وآثارها على الدولة والمجتمع ، ومن ثم قُسِّم البحث إلى مقدمة، وتمهيد، ومبحثين:الأول عن الآثار الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن السيول، و المبحث الثاني عن مواقف طبقات المجتمع تجاه أضرار السيول وآثارها ثم الخاتمة .

Abstract

The research deals with the phenomenon of torrents that were exposed to the Levant in the Mamluk era and its economic and social effects, and it is one of the natural phenomena that had various damages to society, and had a great impact on humans, animals and plants, and even caused destruction in urban aspects, and affected the population and economic structures of cities. Levantine. This research will be limited to the economic and social effects left by the floods, through historical sources that have witnessed or referred to this phenomenon, with an attempt to extrapolate their effects in the Levant in the state, scholars and the public, and the role of each of them in limiting and mitigating their effects in the stricken areas. Information in the bellies of historical and literary sources, which described the damage caused by the torrents, which necessitated searching for it, extracting it, clarifying it, organizing it, and extrapolating its results and effects on the state and society. And the second topic is about the attitudes of the social classes towards the damages and effects of floods, and then the conclusion

المقدمة:

تحدّث القرآن الكريم عن بعض الكوارث التي يرسلها الله سبحانه وتعالى عقابًا للأمم، فيقول سبحانه وتعالى:{فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ}(١) ،وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن بعض ما يصيب الإنسان من هذه الكوارث الطبيعية هي بمشيئة الله،منها ما هو غضب، ومنها ما هو رحمة وشهادة للمسلمين. عن أبي هريرة قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "الشُّهَدَاءُ خَمسَةٌ: المَطعُونُ، وَ المبْطُونُ، والغَرِيقُ، وَصَاحبُ الهَدْم، وَالشَّهيدُ في سبيل اللَّه"(٢).

وقد تعرّضت بلاد الشام خلال العصر المملوكيّ لكثير من الكوارث الطبيعية، التي كان لها أضرار جسيمة على المجتمع، من نواحي عدة،سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وقد امتدت آثارها فأصابت الإنسان والحيوان والنبات، وأحدثت الدمار في النواحي العمرانية، وأخلّت بالبنى السكانية والاقتصادية للمدن الشامية، ومن هذه الكوارث الطبيعية التي أصابت بلاد الشام خلال العصر المملوكي ظاهرة السيول، فقد تعرّضت المدن والقرى في الشام لكثير من السيول خلال العصر المملوكي(٣)، والتي كانت آثارها كبيرة في جميع طبقات المجتمع كرجال الدولة والأمراء والعلماء والقضاة،والعامة، وهم الطبقة الكادحة شبه المعدمة التي كانت كثيرًا ما تتذمّر من عدم تحقيق الأمن والسلامة لها من قبل نواب السلطان المملوكي، القابع في مصر بعيدًا عن الشام(٤).

ولكثرة من تطرق لتعداد الكوارث وإحصائها في بلاد الشام سيقتصر هذا البحث على ظاهرة السيول وآثارها الاقتصادية والاجتماعية في الشام خلال العصر المملوكي ، من خلال المصادر التاريخية التي عاصرت هذه الظاهرة أو أشارت إليها، مع محاولة استقراء هذه الآثار في بلاد الشام ودور كلاً من الدولة والعلماء والعامة، في الحدّ من آثارها والتخفيف منها في المناطق المنكوبة.

وقد قُسِّم البحث إلى مقدمة، وتمهيد، ومبحثين **المبحث الأول عن الآثار الاقتصادية والاجتماعية لظاهرة السيول في المجتمع الشامي خلال العصر المملوكي ، والمبحث الثاني عن مواقف طبقات المجتمع تجاه أضرار السيول وآثارها** ثم يليها الخاتمة والملاحق، وقائمة المصادر والمراجع.

وعلى الرغم من كثرة الدراسات التي تحدّثت عن الكوارث الطبيعية في بلاد الشام إلا أنه لم توجد دراسة متخصصة بالآثار الاقتصادية والاجتماعية للسيول في بلاد الشام في العصر المملوكي، إنما تناثرت المعلومات في بطون المصادر التاريخية والأدبية، التي

وصفت الأضرار التي خلّفتها تلك السيول؛ مما استلزم استخراجها، وتوضيحها، وتنظيمها، واستقراء نتائجها وآثارها في الدولة والعلماء والعامة.

التمهيد:

يقول تعالى في محكم كتابة الكريم: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا}(٥)، فالسيول كظاهرة تحدث بمشيئة الله تعالى، عندما يزيد منسوب هطول الأمطار عن سطح التربة؛ مما يؤّدي إلى جريان الماء من المناطق المرتفعة إلى المناطق المنخفضة بسرعة مدمّرة تكتسح ما في طريقها، وتسبّب خسائرَ هائلةً في الأرواح، وأضرارًا في الممتلكات والعمران؛ مما يترتب عليه آثار وخيمة على المجتمع من عدّة نواحٍ(٦).

وقد تعرّضت بلاد الشام لسيول كثيرة في العصر المملوكي، منها ما كان ناتجًا عن مياه الأمطار في فصل الشتاء، ومنها ما كان ناتجًا عن ذوبان الثلوج في المناطق المرتفعة صيفًا بفعل الحرارة، فتنحدر السيول إلى المناطق المنخفضة(٧)، وقد عدّها بعض المؤرخين من الأمور الغريبة. يقول العيني في أحداث سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م: "واتفق في تلك المنزلة أمر غريب من مجيء سيل عظيم من رؤوس الجبال في ضحوة النهار على غفلة"(٨)، ويذكر الذهبي كذلك في أحداث سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م، فيقول: "وفي شوال جاء بدمشق سيل عرم وقت أول دخول المشمش وذلك بالنهار والشمس طالعة"(٩).

وقد حدثت السيول في بلاد الشام في بعض السنوات في أوقات متقاربة، أي أكثر من مرة خلال سنة واحدة، فكان لها أثر في إحداث المجاعات، والأمراض التي تنشر الخراب والموت، وينتج عنها الفقر، ثم ما تلبث السيول أن تنحسر، ثم تعود مرة أخرى بشكل مدمّر، فلا تكاد المدن تنهض،ويعاودها الخراب.

كما أن للسيول في بلاد الشام آثارًا في مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية فينتشر الخوف والهلع،وينتشر الموت والهجرة، فتتغيّر التركيبة السكانية، ويختلّ التعداد السكاني، وتتدمّر البِنى الاقتصادية والعمرانية، وتنتشر كثير من المفاسد والأمراض الاجتماعية،وترتفع الأسعار، خاصة أسعار الموادّ الغذائية، والعقاقير الطبية، ومستلزمات تكفين الموتى، ويلجأ بعض المنجمين والمشعوذين إلى التنبؤ واستغلال حاجة الناس وخوفهم،ويكثر المنحرفون من اللصوص وغيرهم.

المبحث الأول:

الآثار الاقتصادية والاجتماعية لظاهرة السيول في المجتمع الشامي في العصر المملوكي:

قسم عدد من الباحثين المجتمع الشامي إلى عدد من الطبقات، فمنهم من جعله طبقتين: خاصة، وعامة[١٠]، ومنهم من جعله عدّة طبقات، منها: **طبقة الأمراء النواب وأرباب السيوف**[١١]: وهي طبقة من المماليك المهيمنة على حكم نيابة دمشق والمناصب العسكرية، وهم مهتمون بالشؤون السياسية الخارجية،وقد تركوا مهمة إدارة الشعب للعلماء ورجال الدين[١٢]. **وطبقة أرباب القلم**[١٣]: وهم أصحاب الوظائف الديوانية والدينية بدمشق، كالوزراء والحجاب وكتاب الدواوين، والقضاة، وهم على المذاهب الأربعة، أعلاهم الشافعي، والخطباء، والمفتين، والمدرّسين من علماء الدين[١٤]. وقد أطلق عليهم في بعض المصادر "المتعمّمين"[١٥]، وكانت لهم الوظائف الدينية والإدارية[١٦]. **وطبقة التجار**: وقسمهم المقريزي إلى ثلاث أقسام، وهم: أهل اليسار، والباعة، وأصحاب المعايش[١٧]، وقد تميّزت هذه الطبقة بالرفاهية وسعة العيش، ومنافسة الأمراء في اللبس والمأكل والسكن. وقد يقترض الأمراء في بعض الأحيان منهم الأموال[١٨]. **طبقة الحرفيين**:وهي من الطبقات المتوسطة الحال،وتلي الطبقات العليا، مثل:أصحاب الصناعات، وكان لكل حرفة نقابة خاصة بها، يطلَق على كبيرها: كبير الطائفة، أو عريف الحرفة[١٩]،وقد تعرّضت هذه الطبقة لظلم المماليك،وفرضت عليها كثير من الضرائب[٢٠].

طبقة الفلاحين: وهم يشكّلون الغالبية من سكان المجتمع الشامي،وقد اتّصفوا بالهدوء والاستقرار، وقلة الثورة على السلطة، إلا أنهم عانوا كثرة الضرائب التي تُفرَض عليهم، وتؤخَذ منهم، خاصة وقت الكوارث، كما تعرّضوا لعمليات السلب والنهب وتخريب أراضيهم[٢١]، كما عانى الفلاح ويلات نظام الإقطاع الملزِم له بفلاحة الأرض ثلاث سنوات،فإن تغيّب فيها تعيده السلطات إلى سيده، ولم يجدِ الفلاح وسيلة للتعبير عن غضبه سوى الاجتماع في المسجد، والتكبير، والتظلّم بعضهم لبعض[٢٢].

وطبقة الزعر: وهي من الطبقات المعدمة التي كانت كثيرة التذمّر من سوء الأوضاع، والتي عرفت في مصر بالحرافيش، ووجد منهم كثير بالشام، خاصة في دمشق في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وهي أشبه ما تكون بتنظيم اجتماعي متمرّد على الدين والأخلاق، ولكل حيّ بدمشق زعر لهم قائد، فكان فيها زعر الصالحية[٢٣]، وزعر الشاغور[٢٤]، وزعر الجابية[٢٥]، وتلقّبوا بألقاب عدّة، مثل: أبو الطاقية،والجاموس، والمبارك، كما كان لهم زيّهم الخاصّ، وقد أطلق عليهم أسماء عدة، مثل: غوغاء الناس، والأوغاد، والأشرار، والأوباش[٢٦]، وقد نشطوا في الدولة المملوكية البرجية بكثرة؛ نتيجة

لضعف السلطة، فظهروا كقوةٍ لها تنظيمها الخاصّ، فكثر القتل والسلب والنهب في دمشق، فكثروا وكثر شرهم[٢٧]، وقد تعاملت معهم السلطات المملوكية بعدّة طرق:إما بالحبس،أو بالشنق، أو بالسلخ؛ للحدّ من فسادهم وفتنهم[٢٨]. و**طبقة الرقيق:**وهي في قاع الطبقات،وقد ازداد عددهم من الرجال والنساء في دمشق في العصر المملوكي كثيرًا، فكان تأثيرهم في المجتمع واضحًا،خاصةً الجواري اللواتي تُجلَب من أماكن عدّة، وتعمل في القصور والبيوت والحانات، وكان لهنَّ أسواق خاصة يبعنَ فيها، مثل سوق التكة يومي الخميس والاثنين،أما فائقات الجمال من الجواري فيبعن في سوق الشيخي بدمشق[٢٩]، وتختلف أسعار الجواري بحسب مواصفات الجارية، وبحسب ظروف العصر[٣٠]. وقد تأثرت جميع طبقات المجتمع الشامي بالسيول، اقتصادياً واجتماعياً وما أحدثته من خراب، ودمار، وتعطيل للحياة في القرى والمدن الشامية .

<u>الآثار الاقتصادية للسيول في المجتمع الشامي :</u>

١.آثار السيول في الثروة الحيوانية:

٢. تعتمد حياة سكان المدن والقرى اعتمادًا رئيسًا على ما لديهم من ثروة حيوانية؛ لكثرة استخدامها في الركوب والتنقّل والسفر، ولاعتمادهم على لحومها وألبانها وجلودها في التغذية واللباس، فمن الطبيعي أن تتأثّر حياتهم بتناقص أعداد الحيوانات والدواب والمواشي،التي تنفق جراء الغرق في السيول. فمن ذلك هلاك كثير من الخيول والجمال في سيول سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م، إذ يذكر ابن أيبك الدواداري ذلك فيقول: "وغرق من الخيل والجمال شيء كثير، ومن جملتها جمال كثيرة للأمير عز الدين إيغان سمّ الموت، قال الوالد–رحمه الله–: وكذلك غرقت للأمير سيف الدين الدوادار عدة ثلاثة عشر فرسًا كانت مربوطة، فعجز الناس عن حل وثاقها فهلكت [٣١]

ومن ذلك ما حدث في سيل سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م، الذي تسبّب في نفوق كثير من الخيول والجمال[٣٢]،كما كان للسيول كذلك أثر في نفوق الأسماك. فقد لوّث السيل سنة ٧١٩هـ/ ١٣٢٠م نهر بردى وملأه بالطين والأوساخ؛ مما أدى إلى اختناق الأسماك ونفوقها[٣٣].

٣. آثار السيول في المنشآت العمرانية :

تسبّبت السيول في بلاد الشام خلال العصر المملوكي بأضرار بالغة في الممتلكاتالعامة وتدميرها، كتدمير الأسواق والعمائر التجارية والحوانيت، التي يقوم عليها اقتصاد المجتمع، فتتعطّل حركة البيع والشراء في الدكاكين، وتقفل الحوانيت أبوابها، ويخيّم الغرق والسكون على الأسواق، وتقلّ الأقوات،وترتفع أسعارها، خاصة على الطبقات الفقيرة التي لاتجد قوت يومها في أيام الصحو. يذكر المقريزي في أحداث سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٨مأثّر السيول في الدور والحوانيت، فيقول: "وجملة الدور التي خرّبها والحوانيت التي أتلفها نحو من ستمئة دار وحانوت"(٣٤).

ويصف الفاخري ما أحدثه سيل عجلون سنه ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م من خراب للأسواق، مثل: سوق الآدميين، وسوق القطانيين، والأقباعيين، وسوق الخليع، وقيسارية التجار، وسوق الصاغة، والفامية، فكان من أثره أن فقد الناس ما يحتاجون إليه من سلع يومية ضرورية، وامتدّ أثره كذلك إلى التجار، فكانت خسائرهم المادية كبيرة(٣٥)،كما يذكر ابن طولون في أحداث سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م بدمشق تهدُّم عدد من الحوانيت من تحت القلعة إلى قرب دار الفراديس من أثر السيول(٣٦)، كما أن مما يزيد الأمور سوءًا أن يستغلّ بعض التجار الجشعين ما يصيب البلاد والعباد من فقر وعوز؛ فيرفعون الأسعار(٣٧)؛ مما يؤدّي بالسكان إلى التذمر من سوء الأحوال وارتفاع الأسعار. وقد عدّ أبو الفضل الدمشقي السيول من الكوارث التي لها أثر في ارتفاع الأسعار، ويظهر ذلك من قوله عن ارتفاع سعر السوق: "... ثم زاد سعره بسبب ... إحدى الجوائح السماوية أو الأرضية"(٣٨).

وقد أثّرت السيول وما يصاحبها من الوحل الذي ينتشر في الطرقات الداخلية والخارجية في إغلاقها وتعطيل حركة المرور والتنقل خلالها؛ مما تسبب في قطع طرق التجارة بين المدن الشامية داخليًا،وبينها وبين الأقطار الأخرى، وهو ما يحول دون وصول السلع إلى الأسواق. فقد ذكر ابن أيبك الدواداري مثالًا على ذلك في سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م: "انقطع الجلب بسبب الوحل لكثرة الأمطار، ووقع الغلاء الزايد حتى بلغ حمل التبن الذي أكثره تراب لا ينتفع به أربعين درهمًا وخمسين درهمًا، ولاكان يحصل إلا بالدبابيس [أي بالقوة]، أي من قوي أخذه، ولم يقدروا على الوصول إلى دمشق البتة"(٣٩)، كما ذكر ابن طولون مثالًا آخر على ذلك سنة ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م، فيقول: "ارتفع سعر القمح بدمشق لانقطاع الجلب من بلاد حوران حتى وصل رطل الخبز إلى ثلاثة دراهم"(٤٠).

كما تسببت السيول في تدمير الحمّامات العامة، التي اعتاد أهل الشام على الـذهاب إليها واستخدامها في مناسباتهم،إذ كان الحمّام كالمتنزّه، يجتمعونفيه ويتحدّثون في شـؤون حياتهم اليومية ومشكلاتهم، كما كان مكان مميّزًا للنساء اللاتي يذهبن في مجموعات إلـى حمام الحيّ، وهنّ يحملن معهن الطعام والشراب المعدّ لذلك اللقاء. وكثيرًا ما يستخدمن فيه أدوات الطرب للغناء والرقص، كما كانت المرأة تحتفل بعد ولادتها بـأربعين يـوم فـي الذهاب للحمام، وفيه تستقبل التهاني والهدايا بالزواج، حيث تقام فيه كثير من التجهيـزات لحفلات الزواج، حيث يتجهّز الطرفان، الرجال والنساء، وأهلهم وأصحابهم في الحمامات المخصصة لكل طرف(٤١)، فقد تتعطّل هذه الاحتفالات بفعل الأمطار والسيول التي يختلف تأثيرها في هذه الحفلات، فقد يكون التعطيل لبعض الوقت، وقد يكون للأبد بموت عدد من الناس. فقد أورد عدد من المؤرخين ما حدث في حمامات حمص سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م، من مأساة بعد تدمير السيل لها، حيث مات عدد من النساء والأطفال فيها(٤٢).

ومن الأضرار التي يخلفها السيل في الممتلكات العامة تهدّم المدارس، وهي أمـاكن مهمّة للتعليم، فتتعطّل فيها الدراسة، ويتوقّف التعليم، سواء لتحفيظ القرآن، أو للتعليم العام، فيكون تأثير هذا التعطيل كبيرًا، خاصة على الناشئة الذين يكونون بحاجـة إلـى التعلـيم والتأدّب. ويختلف الضرر الذي تحدثه السيول في المدارس، فقد يتهدّم جزء منها أوكاملها؛ مما يكلّف الدولة إعادة بنائها وتعميرها.فقد أورد ابن أيبك الدواداري ما حدث للمدارس في سيل سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م، بقوله: "لما كان يوم الأحد [ثاني عشر شوّال]، وهو يوم عيد عنصرة اليهود، ثامن ساعة منه، دخل السيل إلى دمشق من باب الفـراديس...، ووصـل الماء إلى المدرسة الفلكية، وصار فيها مقدار قامة وبسطة، ووصل إلى المدرسة المقدّمية، وبقي مقدار ثلاث ساعات، ثم هبط بمشيه"(٤٣).

وكان للسيول كذلك أثر بالغ في المساجد في بلاد الشام، فتتعطّل صلوات الناس الخمـس، وكذلك الحلقات الدينية، مثل: حلقات حفظ القرآن الكريم، وحلقات العلم والدراسة، ويصـل الخراب إلى مقتنياتها من فرش وسرج وكتب ومصاحف.فيصف ابن كثير السـيل الـذي حدث بمدينة عجلون سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م، الذي كان من أضراره انهدام الجامع، وعدد من الدور والأسواق(٤٤)، وقد وصف ابن كثير ما حدث للجامع في مدينـة بعلبـك سـنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م، فيقول: "وفي صفر جاء سيل عظيم...، ودخل الجامع فارتفع فيه على قامة ونصف، ثم قوي على حائطه الغربي فأخربه، وأتلف جميع ما فيه مـن الحواصـل، والكتب، والمصاحف، وأتلف شيئًا كثيرًا من رباع الجامع، وهلك تحت الهدم خلق كثير من

الرجال، والنساء، والأطفال، فإنا لله وإنا إليه راجعون"(٤٥). ويذكر ابن طولون في أحداث سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م وقوع منارة الناصرية، إذ يقول: "وفي بكرة يوم الجمعة سابع عشره هبّ الهواء كثيرًا، ثم وقع مطر، ثم أرعدت، ثم قوي المطر، ثم زاد الرعد، بحيث خاف الناس، ووقعت صاعقة على منارة الناصرية، غربي الصالحية، فخربت رأسها وجانبًا منها، وأخذت جانبًا من عتبة الشباك الذي تحتها، وكان ذلك في حال قدوم زوار بيت المقدس، الذين سافروا من نحو شهر، حتى كادوا أن يغرقوا برأس القبيبات، ثم أصحت ونشفت الأرض، وخرج الناس إلى الجمعة"(٤٦).

ومن أضرار السيول كذلك تدمير أسوار المدن وأبوابها ومتاريسها، وقطع الجسور، وتخريب المنشآت العامة المختلفة(٤٧)،وهي منشآت مهمّة في الدفاع عن المدن في تلك الفترة، وحماية سكانها من الغارات الصليبية والمغولية، وخرابها يعنى الانكشاف للعدو. يذكر المقريزي آثار السيول سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م في دمشق فيقول: "وانتهي السيل إلى باب الفراديس، فكسر أقفاله وما خلفه من المتاريس"(٤٨)، كما ذكر ابن كثير أحوال الناس بعد سيل سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، واصفًا خوفهم من التتار من جهة، والسيول وما أحدثته من جهة أخرى بقوله: "وفي أول ربيع الآخر قَوِي الإرجاف بأمر التتار...، فكثر الخوف، واشتدّ الحال، وكثرت الأمطار، وصار بالطرقات من الأوحال والسيول ما يحول بين المرء وبين ما يريده من الانتشار في الأرض والذهاب فيها، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وخرج كثير من الناس خفافًا وثقالًا يتحمّلون بأهاليهم وأولادهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وجعلوا يحملون الصغار في الوحل الشديد والمشقّة على الدواب والرقاب، وقد ضعفت الدوابّ من قلّة العلف، مع كثرة الأمطار والزلق، والبرد الشديد والجوع وقلة الشيء"(٤٩).

وعند ذكر السيول وأثرها في بلاد الشام لا يمكن إغفال سيل مدينة بعلبك سنة ٧١٧هـ/ ١٣٢٧م، الذي سالت منه الأودية، وأحدث الأضرار البالغة في المنشآت العمرانية بالمدينة، فيصف ابن كثير هذا السيل في سنة ٧١٧هـ، فيقول: "وفي صفر جاء سيل عظيم بمدينة بعلبك...، فسالت الأودية، ثم جاءهم بعده سيل هائل خسف من سور البلد من جهة الشمال بشرق مقدار أربعين ذراعًا، مع أن سمك الحائط خمسة أذرع، وحمل برجًا صحيحًا، ومعه من جانبيه بعض بدنيتين، فحمله كما هو حتى مرّ فحفر في الأرض نحو خمسمئة ذراع، سعة ثلاثين ذراعًا، وحمل السيل ذلك إلى غربي البلد، لا يمرّ على شيء إلا أتلفه، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، فأتلف ما يزيد على ثلثها"(٥٠).

ومن الممتلكات العامة التي تأثرت بجريان السيول، وهُدمت الخانات والفنادق، وهي مساكن للمسافرين والتجار، وعادة ما تكون مسكونة بأعداد كبيرة من الناس، وفيها موضع للدواب، ومخازن للأمتعة والأموال و التجارات، فيأتي السيل عليها جميعًا. يذكر اليونيني ما أحدثه السيل سنه ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م بخانات دمشق، فيقول: "وفي يوم الأحد ثاني عشر شوال وصل إلى دمشق سيل عظيم خرّب كثيرًا من العمائر...، وأخرب خان ابن المقدّم وأماكنَ كثيرةً، وكان ذلك في زمن الصيف"(٥١). كما امتدّ تأثير السيول إلى المزارع والبساتين، فتجرف الأراضي والمزروعات، وتدمّر المحاصيل الزراعية. ويذكر ابن طولون تأثّر زراعة التفاح والمشمش بالسيول في دمشق سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، إذ يقول:"في ليلة الخميس ثالث عشريه كانت السماء مصحيّة، فلما قرب طلوع الفجر تراكم الغيم من كلّ جانب، ثم وقع رعد وبرق شديد، ثم مطر شديد، ثم برد شديد، بحيث نثر المشمش والتفاح، ولم يقع مثله في هذه السنة، وجاءت السيول من كل جانب"(٥٢).

ومن أثر السيول كذلك زيادة منسوب مياه الأنهار، وفيضانها حتى تحدث الخراب(٥٣)،أو تلوّثها بالطين، وردم بعضها بالمخلّفات والأوساخ؛ مما كان له أثر في الإنسان والحيوان والزرع، الذي يستفيدمن هذا الماء؛ مما يكلّف الدولة كثيرًا لإعادة تنقية المياه، خاصة مياه الشرب. فيذكر اليونيني سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م تلوّث مياه الأنهار بالطين، فيقول: "وفي يوم الأحد ثاني عشر شوال وصل إلى دمشق سيل عظيم ردم الأنهار بطين أصفر"(٥٤)، ويذكر ابن طولون في أحداث سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م فيضان عين دار البطيخ بدمشق من كثرة السيول(٥٥)،كما يذكر عن سنة ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م: "ووقع بدمشق وبخوارجها مطر، واستمر متراسلًا ليلًا ونهارًا، وسمت الماء الذي في جوف القناة قبلي مسجد المؤيد"(٥٦)،كما يذكر ابن حجي امتلاء الأنهار سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م بدمشق، حتى فاضت من جراء السيول ووعرت الطريق(٥٧)، وقال الذهبي عن تلوّث مياه بردى سنة ٧١٩هـ/ ١٣١٩م: "جاء بدمشق سيلٌ عظيم، ولم أرَ قطُّ ماءً أعكر منه، لعل في الرطل منه ثلاث أواق تراب"(٥٨).

ومن أثر فيضان الأنهار من السيول تعطُّل عمل الطواحين التي تعمل بالماء وتهدّمها،وهو ما تسبّب في تعطّل طحن الحبوب، وفقدان الخبز، وإن وجد كان باهظ الأسعار.فيذكر ابن حجّي تعطُّل الطواحين جراء فيضان الأنهار من السيول سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م، فيقول:"جاء نصف نهار الثلاثاء سيل فاض بسببه النهر فيضًا كثيرًا، بحيث غرقت الطواحين التي على وادي بردى، وصادف ذلك انقطاع الأنهر الثلاثة وألقاها

عليه، وصار وادي الشقرا بحرًا واحدًا، وكذلك شرقي الميدان الشمالي"[٥٩]. كذلك ذكر ابن طولون تعطّل الطواحين بدمشق في سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م: "وفيها كثر المطر والبرد، ثم جاءت زيادات كثيرة حتى غرق طواحين كثيرة، وذهب ما فيها، وفقد الخبز، وغلا لقلّة الطحن، والجملة فلم ير في هذه الأيام مثلها قط"[٦٠]،كما أضرّت السيول بالمنشآت الخاصة بالناس، مثل المنازل والدور، إذ نتج عن بعض السيول هدم لأعداد كبيرة من الدور والمنازل؛ مما كان سببًا في تشرُّد كثير من الناس.قال العسقلاني في أحداث سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م عن الآثار التي خلّفها السيل على حلب: "ورد إلى حلب سيل عظيم على حين غفلة، وارتفع زيادة عن العادة، فخرب بسببه دور كثيرة"[٦١]، كما ذكر سيلًا أصاب طرابلس سنة ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م، وما خلّف من آثار، فقال: "وفيه كان السيل العظيم بطرابلس، فهدم أبنية كثيرة"[٦٢].

كما كان من آثار بعض السيول انهدام الدور على أصحابها في مشاهد مأساوية، نتج عنه موت خلق كثير من الناس[٦٣]، فقدقدّر المقريزي عدد الدور التي خَرِبَت في حلب من السيل سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م بنحو أربعمئة دار[٦٤].

٤. آثار السيول في انتشار الغلاء:

يعدّ غلاء الأسعار من الآثار التي ترتبت على ظاهرة السيول، وما أحدثته من أضرار في المجتمع،من هدم للأسواق، وإيقاف التعامل التجاريّ، وانغلاق الطرقات، وقلّة الأقوات، ورفع التجار الأسعار، وتذمّر الناس من هذه الأوضاع.ويعلّل اليونيني سبب غلاء الأسعار في دمشق عام ٦٦١هـ/ ١٣٦٢م، بكثرة السيول التي أغلقت الطرق التجارية تلك السنة[٦٥]. ويقول المقريزي في غلاء الأسعار عام ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م: "وأصاب العسكر فيها شدائد من الأمطار التي توالت أحدًا وأربعين يومًا، حتى عدم فيها الواصل واشتد الغلاء، وبلغ الحمل التبن إلى أربعين درهمًا، والعليقة الشعير ثلاثة دراهم، والخبز كل ثلاثة أرغفة بدرهم، واللحم كل رطل بثلاثة دراهم"[٦٦].

وقد نتج عن السيول عدد من الأمراض بسبب فساد الهواء، وانتشار الرطوبة، وهو ما استغلّه التجار والعطارون لبيع الأدوية للناس، فرفعوا الأسعار. يذكر المقريزي في أحداث سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥مبدمشق غلاء أسعار الأدوية فيقول: "حدث وخم وفناء عم الناس من الفرات إلى دمشق، فلم تبقَ مدينة فيما بين ذالك حتى كثر بها المرض والموت وباع بعض عطاري دمشق في كل يوم أدوية للمرضى بنحو الألف درهم، وأبيع قدر فيه

حسو شعير بزيادة على ثلاثين درهمًا، وأخذ حجام في أجرة فصد وشراطة أذان في كل يوم أربعمئة درهم، فإنه كان فعلًا مذمومًا، وكان الموت فيه بالنسبة إلى المرض قليل"(٦٧).

الآثار الاجتماعية للسيول في المجتمع الشامي :

١. الآثار النفسية :

صوّر عدد من المؤرخين الهيئة التي يكون عليها المجتمع وقت حدوث السيول،وما يصيب الناس من خوف وفزع،يعبّر عنه بالحزن، والبكاء، والعويل، والصراخ، واللجوء إلى الله. فيصوّر الذهبي حال الناس في سيل سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م بدمشق، يقول: "وضجّ الخلق وابتهلوا إلى الله،وكان وقتًا مشهودًا أشرف الناس فيه على التلف"(٦٨).

وهناك من الناس من ربط شدّة الظاهرة بيوم القيامة، إذ يصف ابن حبيب حال الناس في سيل سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م بقوله: "حتى قيل لمن رآها إن الوعيد الحقّ قد اقترب، فوجلت القلوب لهول ذلك وتصدعت، وكادت الحوامل أن تضع حملها، وتذهل كل مرضعة عمّا أرضعت، فمن باكٍ على ما في الدنيا من متاع الدنيا الحقير، ومن مشفقٍ خائف على ولد صغير، ومن غريقٍ ما له ملجأ، ومن ناجٍ يقول أشهد أن الله هو الحق، وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير"(٦٩). وللسيول أثر نفسيّ كذلك في تعطيل المناسبات والاحتفالات في بلاد الشام، وقلبها من حال السرور والفرح،إلى الحزن والترح،إذ اعتاد الشاميون الاحتفال بعدد من الأعياد، والاحتفالات العامة والخاصة في العصر المملوكي، منها ما هو دينيّ، ومنها ما هو اجتماعيّ،كما شارك المسلمون الطوائف الأخرى أعيادَهم واحتفالاتِهم، فكان الناس يخرجون لها ويحتفلون بها في الحدائق والمتنزهات. فيذكر ابن حجي في أحداث سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٣٠ تأثير السيول بدمشق على الحياة العامة وتعطيلها لبعض الاحتفالات الدينية بقوله: "يوم تاسوعاء قبيل العصر جاء سيل بنهر بردى لوقوع مطر بواديه وجرى الماء أحمر من الطين، وزادت الأنهر، وعلا بردى علوًّا كثيرًا"(٧٠).

وقد يدهم السيل المدن والقرى على حين غفلة، خاصةً في وضح النهار والشمس مشرقة، فيأخذ الأرواح والأمتعة والأموال مخلّفًا وراءه الدمار وكثيرًا من الموتى، فيذكر ابن أيبك الدواداري في أحداث سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م السيل الذي داهم دمشق في عيد لليهود والناس تحتفل به، فقال: "لما كان يوم الأحد [ثاني عشر شوّال]، وهو يوم عيد اليهود–ثامن ساعة منه، دخل السيل إلى دمشق من باب الفراديس، بعد ما أخرب الجسر،

وجسر باب السلامة، وجسر باب توما، وبقي مقدار ثلاث ساعات، ثم هبط بمشيئة الله عزّ وجلّ"(٧١).

٢. آثار السيول في البنية السكانية:

تناقصت أعداد السكان في بلاد الشام جراء السيول، بسبب الموت أو النزوح والهجرة عن القرى المنكوبة. يذكر ابن كثير نزوح الناس سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م عن دمشق جراء السيل فيقول: "في يوم السبت خامس رمضان وصل إلى دمشق سيل عظيم أتلف للناس شيئًا كثيرًا، وارتفع حتى دخل من باب الفرج، ووصل إلى العقيبة، وانزعج الناس له، وانتقلوا من أماكنهم"(٧٢).

وقد وصف عدد من المؤرخين الأضرار التي أحدثتها السيول في بلاد الشام طوال العصر المملوكي، ولكنهم اختلفوا في تقدير أضرار السيول على أعداد السكان في المدن والقرى، فمنهم من ذكرها بشكل عام، ومنهم من حدّد مقدار الأضرار والخسائر في الأرواح،فقدّر العيني عدد من مات من الناس في سيل سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م بعشرة آلاف نفس(٧٣). ويذكر ابن كثير آثار السيل الذي حدث بمدينة عجلون سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م،مقدّرًا قيمة الأضرار: "جاء إلى مدينة عجلون سيل عظيم من أول النهار إلى العصر، وغرق سبعة نفر، وهلك للناس شيء كثير من الأموال والغلّات والأمتعة والمواشي، ما يقارب قيمته ألف ألف درهم"(٧٤)، كما قدَّر ابن كثير عدد من مات في سيل بعلبك سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م بمئة وأربعة وأربعين نفسًا(٧٥).

٣. آثار السيول في محمل الحجّ الشاميّ:

يصف ابن كثير ما حدث للحجيج سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م، وأثر الأمطار والسيول فيهم،حتى أوحلت الأرض بشدّة، فيقول: "وخرج الركب إلى الحجاز الشريف يوم السبت حادي عشر شوال، وخرج ناس وتجار كثير جدًّا، وكان قد وقع قليل مطر، فلما برزوا إلى الكسوة ونحوها ودونها، ولم يخرج خلق كثير من البلد، ووقع مطر عظيم جدًّا، ففرح الناس به من جهة أن المطر كان قليلًا جدًّا في شهر رمضان، فلما وقع هذا استبشروا به، وخافوا على الحجاج ضرره، ثم تدارك المطر وتتابع، ولله الحمد والمنة، لكن ترحَّل الحجاج في أوحال كثيرة وزلق كثير، والله المسلّم والمعين والحامي، ولما استقلَّ الحجيج ذاهبين وقع عليهم مطر شديد بالصنمين، فعوّقهم أيامًا بها، ثم تحاملوا إلى زرع، فلم يصلوها إلا بعد جهد جهيد وأمر شديد، ورجع كثير منهم أو أكثرهم، وذكروا أشياءَ عظيمةً حصلت لهم من الشدة وقوة الأمطار وكثرة الأوحال، ومنهم من كان تقدَّم إلى

أرض بصرى، فحصل لهم رفق بذلك، والله المستعان. وذكر أن نساء كثيرة من المخدَّرات مَشَيْنَ حفاةً فيما بين زرع والصنمين"(٧٦).

وعبّر ابن فضل الله العمري في رسائله إلى الصفدي عن تأثير هذه السيول في الحجاج بقوله: "وكان الركب الحجازي في هذه السنة بحرًا يعجّ عجاجه، وبرًّا يضيق بنازله فجاجه، وأكثر القثوم غرباء، فجاؤوا من بعيد المسرى، وأتوا من خلف دار قيصر وكسرى، وركبوا الأهوال، وبذلوا الأموال، وخاضوا الأوحال، إلى هذه الأحوال"(٧٧).

ويذكر العسقلاني موت كثير من الناس في موسم حج سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م بقوله: "وجرى للحاج الشاميّ أشد مما جرى للمصريّ؛ فإنهم جاءهم سيل بخليص تلِف منهم بسببه شيء كثير"(٧٨) ،كذلك في سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م فيقول: "فيها أصاب الحاج في رجوعهم في ليلة التاسع من المحرم عند ثغرة حامد سيل عظيم، فمات عدد كثير، عرف منهم مئة وسبعة وثلاثون نفسًا، وأما من لم يُعرَف فكثير جدًّا، وتلف من الأمتعة شيء كثير جدًّا"(٧٩).

كما امتدّ أثر السيول إلى الحجيج أنفسهم، سواء من الشوام أو الغرباء، فهلك منهم أعداد كبيرة، فيذكر العينيّ في أحداث سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م هلاك الحجاج الروم ودوابهم(٨٠).

إن هذه الأضرار الكبيرة التي أحدثتها السيول شكّلت ضغطًا كبيرًا على اقتصاديات المدن التي تستقبل الهاربين والمهاجرين من القرى بسبب السيول؛ مما ينتج تضخّمًا سكانيًّا فيها، مقابل قلّة المؤن والمساكن، كما شكّلت ضغطًا على الدولة نفسها في السيطرة على هذه المدن، والمحافظة على أمنها.

المبحث الثاني:

مواقف طبقات المجتمع تجاه ظاهرة السيول وآثارها:

يتناول هذا المبحث المواقف المختلفة التي صدرت عن فئات المجتمع الشامي بعد حدوث السيول، سواءً كانت مواقف إيجابية أو سلبية، وأثر تلك المواقف من تخفيف آثار تلك السيول.

١. موقف السلطات من ظاهرة السيول وأثرها في المجتمع:

حاولت السلطات المملوكية التخفيف من آثار السيول في المجتمع في بلاد الشام، بعدّة طرق، منها: الحدّ من جشع التجار وغلاء الأسعار، وإصدار المراسيم بمنع ظلم النواب للرعية، ومحاربة الفساد(٨١)، ومن الأعمال التي قامت بها الدولة للتخفيف على الناس من آثار السيول: إلغاء المكوس، وإبطال المشاهرة في الحسبة، ومنع الاحتكار(٨٢). كما عمدت الدولة المملوكية كذلك إلى تحديد أسعار بعض السلع المرتفعة، مثل الخبز، الذي تسبّبت السيول في ارتفاع سعره بعد خراب الطواحين(٨٣)، كما تعاملت السلطات مع الفتن والاضطرابات التي نتجت عن السيول بطرق رادعة، وأدبت المخربين، إلا أن إنهاءهم كان صعبًا، بسبب قوة تنظيماتهم(٨٤)،كما اتّخذت السلطات بعض الإجراءات الوقائية للوقاية من السيول، والحدّ من آثارها المدمّرة، كحفر الخنادق لتصريف المياه. يقول ابن كثير: "وفي آخر رجب جاء سيل عظيم بظاهر حمص، خرّب شيئًا يسيرًا، وجاء إلى البلد ليدخلها، فمنعه الخندق"(٨٥).

ويذكر العيني خسائر الجند من السيول والحرب مع المغول سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م مع وعد الأمراء لهم بالتعويض، فيقول: "فاجتمعت جماعة من مقدّمي الحلقة وجندها إلى الأمير جمال الدين قتّال السبع وأكابر الأمراء، وعرّفوهم ضعف حال الجند وقلّة نفقتهم، وأن هذا السيل قد أضرّ ببعضهم وأخَذ أموالهم، فاتّفقت الأمراء على الكلام مع الأمير بيبرس والأمير سلّار في أمرهم، فلما اجتمعوا عرّفوهم ضرر الجند وشكواهم، فقالوا: حتى نصل إلى دمشق، وننفق فيهم"(٨٦).

٢. موقف العلماء ورجال العلم من ظاهرة السيول وآثارها على المجتمع:

أسهب المؤرخون في وصف شدّة السيول، التي أصابت بلاد الشام في العصر المملوكي، بعبارات تدلّ على عظم ما وقع للمجتمع من أضرار، كقولهم:"سيل عظيم"(٨٧)، "ولم يرَ مثيله"، و"سيل عرم"(٨٨)، أو بعبارات تحسّر، مثل:"لا حول و لا قوة إلا بالله"، أو "إنا لله

وإنا له راجعون"، و"والله المستعان"[٨٩]، و"والله المسلّم والمعين والحامي". قال ابن طولون في شدّة سيول عام ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م على دمشق: "جاءت زيادة عظيمة مفرطة، حتى قيل إن هذا هو الطوفان الأصغر"[٩٠].

كما نظر بعض رجال العلم إلى ظاهرة السيول نظرة إيجابية، في أنها مطهّرة للأرض مزيلة للنجاسات، يقول ابن طولون في أحداث سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧ عن سيول دمشق: "مطرت السماء بعض مطر، ثم أصبح ماء دمشق كماء الحريرة من الزيادة في شدة البياض والنحافة، فطهرت النجاسات الكلبية من دمشق وغيرها، ولله الحمد على التطهير من ذلك في أوائل دخول رمضان، ولعله أن يطهرنا فيه من الذنوب"[٩١]. في حين فسّر بعض العلماء حدوث السيول بأنها غضب من الله،لكثرة الذنوب والمعاصي، وانتشار المفاسد،فيقول ابن طوق في التعليق على أحداث سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م: "سيل ممزوج بساعة غضب الله لا يغضب علينا"[٩٢]، ويصف المقريزي الأوضاع الاجتماعية السيئة من شدة الأمطار، وما أتلفته سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م بالشام مما لا يمكن إحصاؤه، مع سوء الأوضاع السياسية فيها، فيقول: "تلفت في هذه السنة بعامة أرض مصر وجميع بلاد الشام بالأمطار من الزروع والأشجار والبهائم والأنعام والدور ما لا يدخل تحت حصر، مع ما ابتلي به أهل الشام من تجريد عساكرها، وتسخير أهل الضياع، وتسلّط العربان والعشير، وقلة حرمة السلطنة مصرًا وشامًا، وقطع الأرزاق وظلم الرعية"[٩٣].

كما يعزو بعض العلماء كثرة السيول إلى أنها من العقاب الذي سلطه الله على الناس، لمبالغاتهم في الاحتفالات، وما فيها من المنكرات والبدع. فيذكر الشيخ علوان بعض احتفالات أهل دمشق الاجتماعية، معلّقًا عليها بتحسُّر، ويصف ما بها من المسارح والمغنين واختلاط النساء بالرجال، فيكون كشف العورات، واللهو، وكثرة الضحك، والغفلة، وقد تُترَك الصلاة، ويتمّ الاستهزاء بالدين. ومنها: أن يقوم أحدهم بالجلوس في مكان مرتفع تشبُّهًا بالقاضي أو العالم، فيُسأَل ويجيب بطريقة ساخرة للإضحاك، وكل ذلك استهزاءً بالدين[٩٤]،وهناك من العلماء والمؤرخين من رأها كوارث تحدث بقدرة الله سبحانه وتعالى، وتنزل بالناس لتأديبهم ووعظهم،فيقول ابن الوردي في سيل أصاب دمشق:

إنّ المصائبَ بالأقدارِ كائنةٌ لكنْ على حسبِ الأقدارِ تُحتسبُ[٩٥]

كما صوّرها ابن الوردي من شدّتها بيوم القيامة في قوله: "كم زمجرت الرعود على الناس كأنها تطلبهم بثأر القتيل، وما قتلوه، وقعقعت عليهم لجّ صواهلها، حتى تلوا أتى أمر الله فلا تستعجلوه ":

أظمتني الدنيا فلما جئتُها مستسقيًا مطُرت عليّ مصائبا
سحبٌ بوارقٌ أو ثلوجٌ خلتها زنجًا تبسّم أو قذالًا شائبا(٩٦)

فهو يصف حال الناس عند شحّ المطر، بأنهم يستسقون لنزوله، وعندما ينزل يحدث سيولًا مدمّرةً على أهل الشام من شدتها، كما حاول بعض العلماء التخفيف من آثار السيول في المجتمع،فكان لهم دور في إجبار التجار والباعة على تخفيض أسعار سلعهم، لما فيها من تخفيف الشدّة على الناس. فقد أظهر العليمي في ترجمته لقاضي القضاة شمس الدين البابرتي (ت٨٥١هـ/ ١٤٤٧م) تدخّله في مسألة الأسعار،فقال: "...كان له إقدام وشجاعة، وله هيبة عند الناس والحكام، ونفَذ أمره حتى تكلم في الأسعار، فكان يطلب اللحامين والخبازين وغيرهم من أرباب الحرف ويأمرهم ببيع بضائعهم بسعر معيّن، فلا يسعهم مخالفته، واستمرّ على ذلك إلى أن صُرِف عن القضاء"(٩٧).

ويقارن اليونيني بين ما حدث في دمشق من سيول عام ٦٦٩هـ/ ١٢٧١م، بما أشار إليه للعالم عزّالدين أحمد بن معقل بأبياته في سيل مشابه له بقوله:

لله أي حيًا حنت روائمه وهمهمت أسده والشمس في الأسد
فصب في أغرب الأوقات صيّبه غروب محتشك الأخلاق محتشد
وراحت الأرض بحرًا فالوهاد إذا تعلو الهضاب بمد دائم المدد
وأقبل السيل بالأمواج مرتميًا مثل القروم إذا تهتاج بالزبد
فاعجب له من سحاب جاء يسحب من أذياله فوق نار الصحصح الجرد
يمده كل واد مزبد لجب فيه حطام من الينبوت والحضد
أرخى عزاليه ملأن محتفلًا فطال شم الربى في أقصر المدد
وحين أهدي إلينا الصخر يقذفها من السناخيب هدى الضر للبلد
فيا لها قدرة من قادر عجزت فيها البرية عن حصر وعن عدد(٩٨)

٣. موقف العامة من ظاهرة السيول وآثارها فيهم:

من الأضرار التي تحدثها السيول في المدن والقرى كثرة الموتى التي تؤثّر في النواحي الاجتماعية، من حيث تشتت الأسر، ويفقد فيها الأم والأب والأبناء،فيؤثّر ذلك في البناء الأسريّ. يذكر ابن طولون ما سبّبته السيول في سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م، من خسائر بشرية، فيذكر من مات فيه من الرجال والأطفال والنساء، مثل زوجة القاضي شمس الدين ابن المجد وأمها بشكل مأساوي، إذ حمل الماء زوجته وألقاها بعيدًا فوق عقد باب الأمينية، ولم يتم إنزالها إلا بسلّم(٩٩). وغرق كذلك في الجامع الشيخ علي بن محمد بن الشيخ

علي الحريري هو وجماعة معه من الفقراء[١٠٠]. ومن أضرار السيول على العامة كذلك، تدمير الأمتعة والمؤن والأموال؛ مما يؤدّي بهم إلى الفقر والحاجة وقلة الأقوات مع غلاء الأسعار[١٠١].

في ظلّ تلك المحن التي نزلت بالناس في بلاد الشام اختلفت مواقفهم منها، فمنهم من التجأ إلى الله لرفع البلاء عنهم من هذه المحن، وإعلان التوبة، والدعاء لله أن يخّفف عنهم البلاء[١٠٢]، ومنهم من نزح ورحل عن دياره المنكوبة إلى المناطق الجافّة، تاركًا وراءه منزله، وأعماله، ومزرعته، المتضرّرة خلفه[١٠٣]، ومنهم من يمكث في المدن المنكوبة، ولكنهيثير الفتن والاضطرابات داخل المجتمع، ويقوم بأعمال السلب والنهب، ويروّع الناس.يذكر ابن طولون من أضرار سيل سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م: "وفيه وقع مطر كثير، فزاد تشويش الأروام على الناس في بيوتهم"[١٠٤]. كما اتّجه بعض الناس إلى رجال الدولة، مطالبين بالحدّ من ظاهرة الغلاء، وحثّوهم على التدخّل، وحمايتهم من التجار، وإجبارهم على خفض أسعار بعض المواد الغذائية. ومن ذلك أنه عندما ارتفع سعر الخبز في دمشق في ذي الحجة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م اشتكى العامة للنائب غلوَّ الخبز، فلبّى نداءهم، وجمع أصحاب الشأن في ذلك، واتّفق رأيهم على أن يجعلوا كل رطل خبز بأربعة دراهم[١٠٥].

الخاتمة:

في ختام هذا البحث، الذي درس الآثار الاقتصادية والاجتماعية للسيول في المجتمع الشامي في العصر المملوكي ، وبعد رصد السيول من المصادر والمراجع العربية، واستقراء نتائجها، وتبيان آثارها في المجتمع الشامي في تلك الفترة خرجت الباحثة بالنتائج التالية:

- حدثت ظاهرة السيول في الشام في العصر المملوكي قرابة ٣٩ مرة في مختلف المدن والقرى، أكثرها كان على مدينة دمشق، إذ أصابها السيل ٢٢ مرة،وهو أمر طبيعي،إذ إنها تقع على هضبة مرتفعة عن سطح البحر، وتحيط بها الجبال من جهات عدة، تليها حلب التي أصابها السيل ٥ مرات، ثم حمص مرتين، ثم بعلبك، وطرابلس، وحماة، وغزة، وعجلون مرّة واحدة في كل منطقة .
- وضّحت الدراسة مصادر السيول على الشام، فمنها ما كان مصدره المطر في فصل الشتاء، ومنها ما كان مصدره ذوبان الثلوج من قمم الجبال في فصل الصيف بفعل الحرارة، فتنحدر من الجبال تجاه المدن، محدِثة الدمار والخراب والخسائر في نواحٍ عدة، مؤثّرة بذلك في المجتمع الشامي.
- بيّنت الدراسة الأثر النفسيّ للسيول في المجتمع، وما أحدثته من فزع وخوف وهلع، كان له أثر في النزوح والهجرة عن المناطق المنكوبة، أو البقاء ومحاولة التعايش مع المأساة بطرق غير شرعية، مثل: السرقة والقتل؛ مما انعكس على أمن المجتمع واستقراره في تلك الفترة.
- وصفت الدراسة أثر السيول في البنية السكانية في بلاد الشام، واختلال التعداد السكاني في المدن والقرى من حيث الهجرة، وآثارها في الدولة، وفي العامة. كما تعرّضت للأضرار التي أحدثتها السيول وآثارها في الثروة الحيوانية، والبنية العمرانية والاقتصادية والدينيةٍ للمجتمع.
- عرضت الدراسة لمواقف كلٍ من الدولة، والعلماء، والعامة تجاه ظاهرة السيول وآثارها، مبينة دور كلاً منهم في مواجهة أثارها .

الملاحق

- **ملحق رقم (١)**

جدول السيول التي أصابت بلاد الشام مرتباً على السنين:

م	السنة	المدينة	الأثر
١	٦٦١ه جمـــــادى الأولى	غزه	جاء من الأمطار ما منع السابلة فغلت الأسعار
٢	٦٦٩هـــــ شوال	دمشق	سيل أغلق أبواب البلد وطغى الماء وارتفع وأخذ البيوت والجمال والأموال. وارتفع عند باب الفرج ثمانية أذرع حتى طلع الماء فوق أسطحة عديدة وضج الخلق وابتهلوا إلي الله. وكان وقتًا مشهودًا أشرف الناس فيه على التلف ولو ارتفع ذراعًا آخر لغرق نصف دمشق ، خرب كثيراً من العمائر وأخذ كثيراً من الناس منهم معظم الحجاج الروميين وجمالهم و أزوادهم كانوا نزلوا بين النهرين وبلغ السور فغلقت الأبواب دونه وطما حتى دخل من المرامي وارتفع حتى بلغ أحد عشر ذراعاً وردم الأنهار بطين أصفر ودخل البلد من باب الفراديس وأخرب خان ابن المقدم وأماكن كثيرة ، يوم عيد عنصره اليهود دخل من باب الفراديس، بعد ما خرب الجسر، وجسر باب السلامة، وجسر باب توما. ووصل الماء إلى المدرسة الفلكية، وصار فيها مقدار قامة وبسطه، ووصل الى المدرسة المقدميه. وبقى مقدار ثلث ساعات، ثم هبط بمشيه الله عزّ وجلّ. وغرق من الخيل والجمال شئ كثير، ومن جملتها جمال كثيرة للأمير عز الدين ايغان سم الموت. قال الوالد-رحمه الله-: وكذلك غرقت للأمي سيف الدين الدوادار عده ثلثه عشر فرسا كانت مربوطة فاعجلهم الما، وعجزوا عن حلهم فهلكوا .
٣	٦٨٢هـــــ شعبان	دمشق	جاء سيل عظيم ،وأخذ ما مر به من العمارات وغيرها، واقتلع الأشجار، وأهلك الحيوان، والكثير من الناس، والخيل والجمال، وذهبت بما لا يحصى من الأقمشة والعدد والخيام والأموال .
٤	٦٨٣هـــــ شعبان	دمشق	حط سيل بعد مطر عظيم فحمل أثقال الأمراء والأجناد وخيولهم وجمالهم فعدم للأمير بدر الدين بكتاش ما تزيد قيمته على أربعمائة ألف وخمسين ألف درهم وانتهي السيل إلى باب الفراديس فكسر أقفاله وما خلفه من المتاريس. ودخل الماء إلى المدرسة المقدمية وبقي كذلك حتى ارتفع النهار. ثم حدث بعد يومين: مطر شديد هدم عدة مساكن بدمشق وظواهرها فتلف للناس ما لا يحصي فأنعم السلطان على الأجناد كل واحد بأربعمائة درهم .
٥	٦٨٥هـ	دمشق	وقع مطر عظيم بدمشق وجاء سيل كثير ولا سيما بالصالحية فأتلف الشيئ الكثير بها .

م	السنة	المدينة	الأثر
٦	٦٩٥ه	حماة	أصاب العسكر فيها شدائد من الأمطار التي توالت أحدا وأربعين يوما حتى عدم فيها الواصل واشتد الغلاء. وأضعف البرد الدواب والغلمان وبلغ الحمل التبن إلى أربعين درهما والعليقة الشعير ثلاثة دراهم والخبز كل ثلاثة أرغفة بدرهم واللحم كل رطل بثلاثة دراهم. وعقب المطر سيل عظيم أتلف معظم الأثقال ومات جماعة من الغلمان وأربعة من الجند لشدة البرد.
٧	٦٩٦ه شوال	دمشق	سيل عظيم في الصيف فأخذ كثيرا من الناس والدواب وقلع الأشجار وردم الأنهار وخرب الدور وارتفع حتى نزل مرامي السور
٨	٦٩٩هـ	دمشق	دخل السلطان دمشق في اليوم الذي ذكرنا في مطر شديد ووحل كثير، واتفق في تلك المنزله أمر غريب من مجيء سيل عظيم من رءوس الجبال في ضحوة النهار على غفلة فأخذ من الجمال والحيل والخيم والأثقال شيئا كثيرا، فوقعت ضجة عظيمة في العسكر وكان وقتا شديدا وحالا صعبا، وامتلأ البلد من الجافلين النازحين عن بلادهم، وجلس الأعسر وزير الدولة، وطالب العمال، واقترضوا أموال الأيتام وأموال الأسرى لأجل تقوية الجيش، وخرج السلطان بالجيش من دمشق يوم الأحد سابع عشر ربيع الأول، ولم يتخلف أحد من الجيوش، وخرج معهم خلق كثير من المطوعة، وأخذ الناس في الدعاء والقنوت في الصلوات بالجامع وغيره، وتضرعوا واستغاثوا وابتهلوا إلى الله بالأدعية، وانفسد حال جماعة كبيرة من العسكر، ومنهم من أصبح فقيرا لا يملك شيئا، فتطيرت الناس بذلك وقالوا: لا يحصل خير في هذه السفرة.
٩	٧٠٠هـ ربيع الأخر	الشام	جاءت الأخبار بأن سلطان مصر رجع عائدا إلى مصر بعد أن خرج منها قاصدا الشام، فكثر الخوف، واشتد الحال، وكثرت الأمطار جدا، وصار بالطرقات من الأوحال والسيول ما يحول بين المرء وبين ما يريده من الانتشار في الأرض والذهاب فيها، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وخرج كثير من الناس خفافا وثقالا يتحملون بأهاليهم وأولادهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وجعلوا يحملون الصغار في الوحل الشديد والمشقة على الدواب والرقاب، وقد ضعفت الدواب من قلة العلف مع كثرة الأمطار والزلق والبرد الشديد والجوع وقلة الشيء، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
١٠	٧١٧ه صفر	بعلبك	سيل عظيم بمدينة بعلبك أهلك خلقا كثيرا من الناس، وخرب دورا وعمائر كثيرة، وذلك في يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر. فسالت الأودية، ثم جاءهم سيل هائل خسف من سور البلد من جهة الشمال بشرق مقدار أربعين ذراعا، مع أن سمك الحائط خمسة أذرع، وحمل برجا صحيحا، ومعه من جانبيه بعض بدنيتين، فحمله كما هو حتى مر فحفر في الأرض نحو خمسمائة ذراع، سعة ثلاثين ذراعا، وحمل السيل ذلك إلى غربي البلد، لا يمر على شيء إلا أتلفه، ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، فأتلف ما يزيد على ثلثها، ودخل الجامع فارتفع فيه على قامة ونصف، ثم قوي على

م	السنة	المدينة	الأثر
			حائطه الغربي فأخربه، وأتلف جميع ما فيه من الحواصل، والكتب، والمصاحف، وأتلف شيئا كثيرا من رباع الجامع، وهلك تحت الهدم خلق كثير من الرجال، والنساء، والأطفال، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وغرق في الجامع الشيخ علي بن محمد بن الشيخ علي الحريري هو وجماعة معه من الفقراء، ويقال: جملة من هلك بالغرق في هذه الكائنة من أهل بعلبك مائة وأربعة وأربعون نفسا سوى الغرباء، وجملة الدور التي خربها والحوانيت التي أتلفها نحو من ستمائة دار وحانوت، وجملة البساتين التي جرف أشجارها عشرون بستانا، ومن الطواحين ثمانية سوى الجامع والأمينية، وأما الأماكن التي دخلها وأتلف ما فيها ولم تخرب فكثير جدا. وإنّ ابن الشيخ الحريرىّ طلع إلى المنبر فانقلب به وغرق. وأخرب السيل الحايط الشماليّة، ولم يسلم من الذين كانوا بالجامع غير إنسان واحد، حمله الماء إلى رأس عمود كان هناك، فتعلّق به فنجا. وأخرب تقدير خمس ماية دار ما عاد عرفت ولا أساسها.
١١	٧١٧ه	دمشق	ومر دمشق سيل عظيم قل ما عهد مثله.
١٢	٧١٧ه ربيع الأول	حلب	مطر غزير وبرد كبار وجاء سيل لم يعهد مثله فأخذ كل ما مر به من شجر وغيره وتكون عمود من نار متصل اقتلع كنيسة كبيرة من عهد الروم ومشى بها رمية سهم ثم فرقها الريح حجرا.
١٣	٧١٨هـ رجب	حمص	جاء سيل عظيم بظاهر حمص خرب شيئا يسيرا، وجاء إلى البلد ليدخلها، فمنعه الخندق. وفي حادي عشر رمضان حصل سيل عظيم بسلمية، ومثله بالشوبك.
١٤	٧١٩هـ رمضان	دمشق	سيلٌ عظيم أذهب كثيرٌ من مساطب السفرجل، ولم أر قط ماءً أعكر منه، لعل في الرطل منه ثلاث أواق تراب. فخنق سمك بردى وطفا، فأخذه الناس.
١٥	٧٢٨هـ رمضان	دمشق	وصل سيل عظيم أتلف للناس شيئا كثيرا، وارتفع حتى دخل من باب الفرج، ووصل إلى العقيبة، وانزعج الناس له، وانتقلوا من أماكنهم، ولم تطل مدته
١٦	٧٢٨هـ	عجلون	جاء سيل عظيم من أول النهار إلى العصر، فهدم من جامعها وأسواقها و رباعها ودورها شيئا كثيرا، وغرق سبعة نفر، وهلك للناس شيء كثير من الأموال و الغلات والأمتعة والمواشي ما يقارب قيمته ألف ألف درهم، والله أعلم، وإنا لله وإنا إليه راجعون
١٧	٧٣٢هـ محرم	حمص	جاء سيل عظيم غرق بسببه خلق كثير وجم غفير، وهلك للناس أشياء كثيرة، وممن مات فيه نحو مائتي امرأة بحمام النائب، كن مجتمعات على عروس أو عروسين فهلكن جميعا.
١٨	٧٤٥ه	الشام	فتلفت في هذه السنة بعامة أرض مصر وجميع بلاد الشام بالأمطار والثلوج والبرد وهبوب السمائم وشدة البرد من الزروع والأشجار والبائهم والأنعام

م	السنة	المدينة	الأثر
			والدور ما لا يدخل تحت حصر مع ما ابتلي به أهل الشام من تجريد عساكرها وتسخير أهل الضياع وتسلط العربان والعشير وقلة حرمة السلطنة مصرا وشاما وقطع الأرزاق وظلم الرعية.
١٩	٧٤٦ه شوال	دمشق	وخرج الركب إلى الحجاز وخرج ناس وتجار كثير جدا، وكان قد وقع قليل مطر، فلما برزوا إلى الكسوة ونحوها ودونها، ولم يخرج خلق كثير من البلد، ووقع مطر عظيم جدا، ففرح الناس به وهو كانون الأصم، فلما وقع هذا استبشروا به وخافوا على الحجاج ضرره، ثم تدارك المطر وتتابع و ترحل الحجاج في أوحال كثيرة وزلق كثير، والله المسلم والمعين والحامي. ولما استقل الحجيج ذاهبين وقع عليهم مطر شديد بالصنمين، فعوقهم أياما بها، ثم تحاملوا إلى زرع، فلم يصلوها إلا بعد جهد جهيد وأمر شديد، ورجع كثير منهم أو أكثرهم، وذكروا أشياء عظيمة حصلت لهم من الشدة وقوة الأمطار وكثرة الأوحال، ومنهم من كان تقدم إلى أرض بصرى، فحصل لهم رفق بذلك، والله المستعان. وذكر أن نساء كثيرة من المخدرات مشين حفاة فيما بين زرع والصنمين والله المستعان.
٢٠	٧٥٢ه	حماه	سيل لم يعهد مثله وخرب السيل أماكن كثيرة.
٢١	٧٧٤ه	حلب	أصابها سيل عظيم خرب به نحو الأربعماية دار.
٢٢	٧٧٥هـ	حلب	سيل عظيم على حين غفلة وارتفع زيادة عن العادة فخرب بسببه دور كثيرة وخربت نواحي كثيرة بالرها والبيرة.
٢٣	٧٧٧هـ	للمحمل	وجرى للحاج الشامي أشد مما جرى للمصري فإنهم جاءهم سيل بخليص تلف منهم بسببه شيء كثير
٢٤	٧٨٣ه	دمشق	وفيه قدم البريد بأن السيل هجم على دمشق وخرب بها عدة دور فلم يعهد بها سيل مثله
٢٥	٧٨٦هـ	دمشق	وفيها وقع في دمشق سيل عظيم، ذكروا أنهم لم يشاهدوه مثله
٢٦	٧٩٠ه محرم	المحمل الشامي	فيها أصاب الحاج في رجوعهم عند ثغرة حامد سيل عظيم، فمات عدد كثير عرف منهم مائة وسبعة وثلاثون نفساً وأما من لم يعرف فكثير جداً، وتلف من الأمتعة شيء كثير جداً.
٢٧	٧٩٥ ربيع الآخر	حلب	حصل سيل عظيم بحلب فساق جملة كثيرة من الوحوش والأفاعي فوجد فيها ثعبان عظيم يسع فمه ابن آدم إذا ابتلعه وكان طوله نحو سبعة أذرع أو أكثر.
٢٨	٨٠١هـ	دمشق	جاء نصف نهار الثلاثاء سيل فاض بسببه النهر فيضًا كثيرًا بحيث غرقت الطواحين التي على وادي بردى وصادف ذلك انقطاع الأنهر الثلاثة وألقاها عليه وصار وادي الشقرا بحراً واحداً وكذلك شرقي الميدان الشمالي ووصل إلى الوراقة ودخل الماء قرب باب ميدان القصر الشمالي عند الجسر واستمر الأمر على ذلك وتزايد إلى ما بعد الغد وهذا والأمطار والغيوم تأبى غبًا ليلًا ونهارًا وأصبح يوم الخميس صحًا والزيادة متضاعفة بحيث أن الميدان الشمالي صار أكثره بحرًا ثم أخذ الماء في التناقص من

م	السنة	المدينة	الأثر
			آخر النهار شيئًا فشيئًا
٢٩	٨٠٢ه	دمشق	وجاء سيل من آخر النهار ففاض بردى ولم يزل يتزايد حتى الليلة المستقبلة.وجاء أيضاً سيل فاض به النهر حتى ملأ الميدان ووعره.
٣٠	٨١٠ه	طرابلس	وفيه كان السيل قيل إنهم ما رأوا مثله، فهدم أبنية كثيرة وهلك بسببه خلق كثير.
٣١	٨٢٤ه محرم	دمشق	ويوم تاسوعاء قبيل العصر جاء سيل بنهر بردى لوقوع مطر بواديه وجرى الماء أحمر من الطين وزادت الأنهر وعلا بردى علواً كثيرًا وذلك في الثالث من أيار ولم يزل البرد متواتراً واستمر الوحل بالأرض والثلج ووقعت بعد ذلك أمطار كثيرة ثم من الله تعالى وأمسك.
٣٢	٨٩١ه	دمشق	مطر وسيل عظيم البيوت دلفت غالبها، وحصلت زيادة في الأنهار عظيمة
٣٣	٨٩٣هـ	دمشق	مطرت السماء بعض مطر، ثم أصبح ماء دمشق كماء الحريرة من الزيادة في شدة البياض والنحافة ، فطهرت النجاسات الكلبية من دمشق وغيرها، ولله الحمد على التطهير من ذلك في أوائل دخول رمضان، ولعله أن يطهرنا فيه من الذنوب،
٣٤	٨٩٦هـ ربيع الأول	دمشق	ووقع المطر، وفي يوم الاثنين سابع عشريه وقع بدمشق وبخوارجها مطر، واستمر متراسلاً ليلاً ونهاراً، ووقع منه طباق كثيرة وجدران كثيرة أيضاً، وجاءت الزيادة إلى تحت القلعة. ووصل حدها إلى مصاطب حمام الكحال، وسمت الماء الذي في جوف القناة قبلي مسجد المؤيد
٣٥	٩٠٥ه	دمشق	سيل ممزوج بساعة غضب الله لا يغضب علينا ، سيل خرب سلاسل الحجارة
٣٦	٩٠٩هـ	دمشق	وفيها كثر المطر والبرد، واستمر ثم جاءت زيادات كثيرة حتى غرق طواحين كثيرة، وذهب ما فيها، وكذلك حوانيت كثيرة، من تحت القلعة إلى قرب دار الفراديس، وفاضت عين دار البطيخ، وخربت بيوت وطباق كثيرة، وفقد الخبز وغلا لقلة الطحن، والجملة فلم ير في هذه الأيام مثلها
٣٧	٩١٦هـ	الصالحية دمشق	هب الهواء كثيراً، ثم وقع مطر، ثم أرعدت، ثم قوي المطر، ثم زاد الرعد بحيث خاف الناس، ووقعت صاعقة على منارة الناصرية، غربي الصالحية، فخربت رأسها وجانباً منها، وأخذت جانباً من عتبة الشباك الذي تحتها، وكان ذلك في حال قدوم زوار بيت المقدس، الذين سافروا من نحو شهر، حتى كادوا أن يغرقوا برأس القبيبات، ثم أصحت ونشفت الأرض، وخرج الناس إلى الجمعة.
٣٨	٩٢٢هـ	دمشق	كانت السماء مصحيّة،فلما قرب طلوع الفجر ، تراكم الغيم من كل جانب، ثم وقع رعد وبرق شديد، ثم مطر شديد، ثم برد شديد، بحيث نثر المشمش والتفاح، ولم يقع مثله في هذه السنة، وجاءت السيول من كل جانب، بحيث أيس من دخول النائب إلى دمشق في اليوم المذكور
٣٩	٩٢٣	دمشق	وفيه وقع مطر كثير، فزاد تشويش الأروام على الناس في بيوتهم

- **ملحق رقم (٢).**

جدول المدن التي أصابتها السيول :

	المدينة	عدد مرات السيول	السنة
١	دمشق	٢٢	٦٦٩هـ ــ ٦٨٢هـ ــ ٦٨٣هـ ــ ٦٨٥هـ ــ ٦٩٦هـ ــ ٦٩٩هـ ــ ٧١٧هـ ــ ٧١٩هـ ــ ٧٢٦هـ ــ ٧٢٨هـ ــ ٧٨٣هـ ــ ٨٠١هـ ــ ٨٠٢هـ ــ ٨٢٤هـ ــ ٨٩١هـ ــ ٨٩٣هـ ــ ٨٩٦هـ ــ ٩٠٥هـ ــ ٩٠٩هـ ــ ٩١٦هـ ــ ٩٢٢هـ ــ ٩٢٣هـ.
٢	حلب	٥	٧٠٠هـ ــ ٧١٧هـ ــ ٧٧٤هـ ــ ٧٧٥هـ ــ ٧٩٥هـ
٣	حمص	٢	٧١٨هـ ــــ ٧٣٢هـ
٤	بعلبك	١	٧١٧هـ
٥	عجلون	١	٧٢٨هـ
٦	غزه	١	٦٦١هـ
٧	طرابلس	١	٨١٠هـ
٨	حماة	١	٧٥٢هـ

الهوامش

[1] سورة سبأ الاية (١٦).
[2] مسلم ،بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)،المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ج٣، ص١٥٢١.
[3] انظر ملحق رقم (١).
[4] العمري ،شهاب الدين بن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ) ، مسالك الإبصار، اختصرة عامر النجا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ٢٠١٢م، ج١، ص ١٨٣.
[5] سورة الرعد الآية (١٧).
[6] أحمد سالم صالح ، الجريان السيلي في الصحراء ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٨٩م، ص٤٣.
[7] ابن حوقل، محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، أبو القاسم (ت ٣٦٧هـ) ،صورة الأرض، دار صادر، بيروت، ١٩٣٨ م، ج١، ص١٧٤.
[8] العيني، أبو محمد محمود بن أحمد بدر الدين (ت : ٨٥٥هـ) ،عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ، ٢٠٠٩م ، ص ٣٤٤.
[9] الذهبي ،شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت. ج٣، ص٣١٩.
[10] إبراهيم زعرور، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي،رسالة جامعية بإشراف الدكتور سهيل زكار، جامعة دمشق ، ص١١٦.
[11] القلقشندي ، صبح الأعشى، ج٤، ص١٨٣. ج٥، ص٤٥٤.
[12] ابراهيم زعرور، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام ، ص١٢٣.
[13] القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٨٨ـ ١٨٩.
[14] المقريزي، السلوك، ج٣، ص٩٣٢.
[15] القلقشندي ، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٢.
[16] القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٤، ص٢٨.
[17] المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة ، ط٢، ١٩٥٦م، ص٧٢ ،٨٢.
[18] ابن طولون ، شمس الدين محمد بن علي بن خماروية الدمشقي الصالحي (ت ٩٥٣هـ)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، وضع حواشية خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٤١٨هـ ،١٩٩٨م ، ج١، ص٤٢.
[19] ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج١، ص٢١. ابن بسام المحتسبت ٨٨٤هـ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق حسام الدين السامرائي،مطبعة المعارف بغداد، ط١، ١٩٦٨م،ص١٣.
[20] ابن طولون . مفاكهة الخلان ،ج١، ص١٩٧.
[21] ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١' ص٥٤٠.
[22] ابن طولون ، مفاكهة الخلان ،ج١، ص٧١.

[٢٣]ابن طوق : (شهاب الدين أحمد بن طوق ت٩١٥هـ) التعليق يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق، تحقيق الشيخ جعفر المهاجر،دمشق ٢٠٠٢م ، ص ١٦١٧.
[٢٤]ابن طوق: ص١٥٠٠.
[٢٥]أيرا لابدوس : مدن إسلامية، ،ص١٥٧.١٥٦.
[٢٦]لابدوس: مدن إسلامية ، ص١٣٨.
[٢٧]ابن طولون ،ج١، ص٣٧٠
[٢٨]ابن طوق: ص١٣٠٠، ١٤٣٧ـ ١٤٩٩.
[٢٩]ابن المبرد : نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق ، نشر حبيب الزيات، مجلة المشرق، ١٩٣٩م،ص٢٧.
[٣٠]المقريزي : السلوك ،ج١١، ص١٠٢٨.
[٣١]ابن ايبك الدويداري، كنز الدرر، ج٨، ص١٦٠.
[٣٢]العيني، عقد الجمان، ص٣٤٤.
[٣٣]الذهبي، العبر، ج ٤، ص ٥٢.
[٣٤]المقريزي ، السلوك .ج١٨، ص١٦٤
[٣٥]الفاخري، بدر الدين بكتاش(ت٧٤٥هـ)، تاريخ الفاخري ، تحقيق عبدالسلام تدميري ، المكتبة العصرية ، بيروت، ٢٠١٠م، ج١، ص ٤٣٥.
[٣٦]ابن طولون ،مفاكهة الخلان ، ج١، ص٢٢٠.
[٣٧]المقريزي، ، إغاثة الأمة ، ص٧٢ ،٨٢. ابن طولون، مفاكهة الخلان ج١، ص٤٢.
[٣٨]أبو الفضل الدمشقي، جعفر بن علي (ت بعد ٥٧٠هـ/١١٧٥م)، الإشارة إلى محاسن التجارة، ط١، دار الاتحاد العربي، د. م، ١٩٧٣م، ص١١.
[٣٩]ابن أيبك، الدواداري،كنز الدرر ،ج٩، ص٤٥ـ ٤٦.
[٤٠]ابن طولون، إتحاف الورى ، ص١٧٦.
[٤١]وصف للأعراس العامة في بلاد الشام في أواخر القرن التاسع الهجري ووصف البدع الشائعة فيه عبد الهادي الهاشم : أعراس الشام في أواخر القرن التاسع الهجري ، فصل من كتاب نسمات الأسحار في كرامات الأولياء الأخيار ، علي عطية الحموي الشيخ علوان ، مجلة مجمع اللغة العربية ، دمشق، ج٣،العدد٣٢،عام ١٩٥٨،ص٣٣١.
[٤٢]ابن كثير ، ج ١٨، ٣٤٣. الذهبي ، العبر، ج٤، ص٩١.
[٤٣]ابن ايبك الدوداري،كنز الدررج٨، ص١٦٠
[٤٤]ابن كثير، البداية والنهاية ج١٨، ص٣٠٢.
[٤٥]ابن كثير، البداية والنهاية ،ج١٨، ص١٦٤.
[٤٦]ابن طولون ،مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٧٥.
[٤٧]ابن طوق، التعليق، ج٤، ص١٨٣٩
[٤٨]المقريزي، السلوك، ج٢، ص١٨٥
[٤٩]ابن كثير، البداية والنهاية ،ج١٧، ٧٣٧.
[٥٠]ابن كثير ،البداية والنهاية ،ج١٨، ص١٦٤.
[٥١]اليونيني، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦ هـ)، ذيل مرآة الزمان، عناية وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣

هـ - ١٩٩٢ م ج٢، ص٤٥١. العيني ، عقد الجمان ، ص ١٢٩.
[٥٢]ابن طولون ، مفاكهة الخلان، ج١ ، ص٣١٧.
[٥٣]ابن طوق ، التعليق، ج٢، ص٦٠٨.
[٥٤]اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ،ج٢، ص٤٥١
[٥٥]ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج١، ص٢٢٠.
[٥٦]ابن طولون ، مفاكهة الخلان، ج١، ص١١٣.
[٥٧]ابن حجي، تاريخ ابن حجي، ج١ ص ٤٠٣
[٥٨]الذهبي ، العبر، ج ٤، ص ٥٢.
[٥٩]ابن حجي، تاريخ ابن حجي، ج١ ص٣٤١.
[٦٠]ابن طولون ، مفاكهة الخلان، ج١، ص٢٢٠.
[٦١]العسقلاني ،إنباء الغمر ج ١، ص٦٢.
[٦٢]العسقلاني ، إنباء الغمر،ج٢ ص٣٨٤
[٦٣]الذهبي ، العبر، ج٣، ص٣١٩، ابن ايبك الدويداري ، كنز الدرر، ج٨، ص١٦٠.
[٦٤]المقريزي ، السلوك،ج٤، ص ٣٦٨
[٦٥]اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ،ج٢، ١٩٢
[٦٦]المقريزي ، السلوك، ج٢، ص٣٣٦
[٦٧]المقريزي، السلوك، ج٣، ص٩٠.
[٦٨]الذهبي ، العبر ، ج٣ ، ٣١٩.
[٦٩]ابن حبيب، حسن بن عمر (ت٧٧٩هـ)، تذكرة النبية من أيام المنصور وبنية ، تحقيق محمد أمين، مطبعة دار الكتب بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م، ج٢، ص١٨٩.
[٧٠]ابن حجي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجي السعدي الحسباني الدمشقي (ت ٨١٦ هـ) تاريخ ابن حجي ، ضبط وتعليق أبو يحيى عبد الله الكندري ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ط١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.ج٢، ص٩٦٨.
[٧١]ابن ايبك الدويداري، أبو بكر بن عبد الله (ت بعد ٧٣٦هـ) ،كنز الدرر وجامع الغرر،نشر عيسى البابي الحلبي ج٨، ص١٦٠
[٧٢]ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) البداية والنهاية ،تحقيق، عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ مج١٨، ص١٩٢.
[٧٣]العيني ، عقد الجمان ، ١٢٩.
[٧٤]ابن كثير، البداية والنهاية ،ج١٨، ص٣٠٢.
[٧٥]ابن كثير، البداية والنهاية ،ج١٨، ص١٦٤.
[٧٦]ابن كثير، البداية والنهاية ،ج١٨، ٤٨٣.
[٧٧]الصفدي، خليل بن ايبك الصفدي(ت٧٦٤هـ) ،الحان السواجع بين البادي والمراجع، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر للطباعة والنشر دمشق ، ط١، ٢٠٠٤م، ج١، ص ١٧١.
[٧٨]العسقلاني، إنباء الغمر ،ج١ص ١٠٦.
[٧٩]العسقلاني، إنباء الغمر ،ج١، ص٣٤٧.
[٨٠]اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٤٥١.

[٨١]المقريزي ، السلوك، ج٥، ص١٦٣. ابن حجي،تاريخ ابن حجي،ج١، ص٣٤١.
[٨٢]ابن طولون ، مفاكهة الخلان،ج١، ص٩١.
[٨٣]ابن طولون ، مفاكهة الخلان، ج١، ٢٢٠.
[٨٤]ابن طوق، التعليق، ص١٣٠٠، ١٤٣٧ـ ١٤٩٩.
[٨٥]ابن كثير ،البداية والنهاية ، ج١٨، ص ١٧٩.
[٨٦]العيني ، عقد الجمان، ص٣٤٤.
[٨٧]اليونيني ، مرآة الزمان ،ج٢، ص٤٥١.
[٨٨]الذهبي ، العبر ،ج٣، ص٣١٩.
[٨٩]ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٨، ص١٦٤، ٤٨٣.
[٩٠]ابن طولون ، رسائل تاريخية في اللمعات البرقية، دمشق ، مطبعة الترقي، ١٣٤٨هـ ،ص٢٧.
[٩١]ابن طولون، مفاكهة الخلان ،ج١، ص٩١.
[٩٢]ابن طوق ، التعليق ، ص١٨٢٤
[٩٣]المقريزي ، السلوك،ج٣ ، ص٤٢١.
[٩٤]الشيخ علوان، نسمات الاسحار، ص٣٣٧.
[٩٥]ابن الوردي: عمر بن المظفر بن عمر الوردي(ت٧٤٩هـ)، الديوان، تحقيق عبدالحميد هنداوي ،دار الافاق الغربية ، ٢٠٠٦م، ص٨٤،
[٩٦]ابن الوردي ، الديوان ، ص ٨٦.
[٩٧]العليمي، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي، أبو اليمن، مجير الدين (المتوفى: ٩٢٨ هـ)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس – عمان، ج٢، ص٢٢٤.
[٩٨]اليونيني ، مرآة الزمان ، ج٢، ٤٥١.
[٩٩]ابن طولون ، اللمعات، ص٢٨.
[١٠٠]ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٨، ص١٦٤. ابن ايبك الدويداري، كنز الدرر،ج٩، ص٢٩١.
[١٠١]ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج١٨، ص٣٠٢.
[١٠٢]الذهبي ، العبر، ج٣، ص٣١٩
[١٠٣]ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٧، ص٧٣٧.
[١٠٤]ابن طولون ، مفاكهة الخلان ،ج١، ص٣٧٠.
[١٠٥]ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، ج١، ص ٣٠٤.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر العربية :

١. **ابن إياس** ، محمد بن أحمد الحنفي (ت٨٧٢هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطبعة دار الكتب القومية بالقاهرة ، ط٣، ٢٠٠٨م.
٢. **ابن ايبك الدويداري**، أبو بكر بن عبد الله (ت بعد ٧٣٦هـ) ،كنز الدرر وجامع الغرر،نشر عيسى البابي الحلبي .
٣. **ابن بسام** ، محمد بن محمد ابن بسام (ت٨٨٤هـ)، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق حسام الدين السامرائي،مطبعة المعارف بغداد، ط١، ١٩٦٨م
٤. **ابن حبيب**، حسن بن عمر (ت٧٧٩هـ)، تذكرة النبية من أيام المنصور وبنية ، تحقيق محمد أمين، مطبعة دار الكتب بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م.
٥. **ابن حجي**، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجي السعدي الحسباني الدمشقي (ت ٨١٦ هـ) تاريخ ابن حجي ، ضبط وتعليق أبو يحيى عبد الله الكندري ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ط١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣.
٦. **ابن حوقل** ، محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، أبو القاسم (ت ٣٦٧هـ) ،صورة الأرض، دار صادر، بيروت، ١٩٣٨ م.
٧. **الذهبي** ،شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت.
٨. **الصفدي**، خليل بن ايبك الصفدي(ت٧٦٤هـ) ،الحان السواجع بين البادي والمراجع، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر للطباعة والنشر دمشق ، ط١، ٢٠٠٤م.
٩. **ابن طوق** ، شهاب الدين أحمد بن طوق(ت٩١٥هـ) ،التعليق يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق، تحقيق الشيخ جعفر المهاجر،دمشق ٢٠٠٢م.
١٠. **ابن طولون** ، شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه الدمشقي الصالحي (ت ٩٥٣هـ)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، وضع حواشية خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٤١٨هـ .
١١. **العمري** ،شهاب الدين بن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ) ، مسالك الإبصار، اختصرة عامر النجا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ٢٠١٢م.
١٢. **العليمي**، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن العليمي الحنبلي، أبو اليمن، مجير الدين (المتوفى: ٩٢٨هـ)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس – عمان.
١٣. **العيني**، أبو محمد محمود بن أحمد بدر الدين (ت : ٨٥٥هـ) ،عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ٢٠٠٩م.
١٤. **الفاخري**، بدر الدين بكتاش(ت٧٤٥هـ)، تاريخ الفاخري ، تحقيق عبدالسلام تدميري ، المكتبة العصرية ، بيروت، ٢٠١٠م.
١٥. **أبو الفضل الدمشقي**، جعفر بن علي (ت بعد ٥٧٠هـ/١١٧٥م)، الإشارة إلى محاسن التجارة، ط١، دار الاتحاد العربي، د. م، ١٩٧٣م.
١٦. **القلقشندي** ، أبو العباس أحمد القلقشندي (ت ٨٢١هـ) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٢م.

١٧. **ابن كثير** ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) البداية والنهاية ،تحقيق، عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ .
١٨. **ابن المبرد** ، نزهة الرفاق في شرح حالة الأسواق ، نشر حبيب الزيات، مجلة المشرق، ١٩٣٩م.
١٩. **المقريزي** ، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥ه)
-- السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور ، مطبعة دار الكتب ، مصر ،١٩٧١م.
--إغاثة الأمة بكشف الغمة ،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة ، ط٢، ١٩٥٦م.
٢٠. **مسلم** ،بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٢١. **ابن الوردي**، عمر بن المظفر بن عمر الوردي(ت٧٤٩هـ)، الديوان، تحقيق عبدالحميد هنداوي ،دار الافاق الغربية ، ٢٠٠٦م.
٢٢. **اليونيني**، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦ هـ)، ذيل مرآة الزمان، عناية وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

المراجع العربية والمعربة :

١. **إبراهيم زعرور**، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي،رسالة جامعية بإشراف الدكتور سهيل زكار، جامعة دمشق .
٢. **أحمد سالم صالح** ، الجريان السيلي في الصحراء ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٨٩م.
٣. **أيرا لابدوس** .مدن إسلامية، نقله للعربية علي ماضي،الاهلين للنشر والتوزيع. ١٩٧٨م.
٤. **عاشور.** سعيد عبدالفتاح، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ٢٠١٦م.
٥. **عبد الهادي الهاشم** . أعراس الشام في أواخر القرن التاسع الهجري ، فصل من كتاب نسمات الأسحار في كرامات الأولياء الأخيار ، علي عطية الحموي الشيخ علوان ، مجلة مجمع اللغة العربية ، دمشق، ج٣،العدد٣٢،عام ١٩٥٨م.
٦. **طه.** صفوان، تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار الفكر، الأردن، ٢٠١٠م.

المراجع باللغة الانجليزية :

1 .Lapidus، Ira: Muslim Urban Society in Mamluk Syrian، in A.H. Hourani and S.M. Stern،(eds.) the Islamic City،Oxford،1970،pp.
2 .**Omari،Abdulla**: The Market society of Greater Syrian in the Later Middle Ages(1250-1217)،University of Wisconsin-Milwaukee،1986.
3 . **Ziadeh،N.A:** Urban Life in Syria Under the early Mamluks،Greenwood press،Westport، Connecticut،1970.